مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 41 عدد 2 (2025): 151-167

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 41-No.2 (2025): 151-167

مفهوم الإرادة الطيبة وطبيعتها ودورها في تأسيس مفهوم العقل العملي عند كانت

إسراء محمد رسول خضرو[1]*

1 –حاصلة على ماجستير في الفلسفة–كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

*-esraa.khodro@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

لقد حاول البحث بيان موقع وأهمية مفهوم الإرادة الطيبة ضـــمن المنظومة النقدية لكانت، وعلاقة هذا المفهوم بمبادئ العقل النظري والعملي، وهل يمكن أن تكون الإرادة الطيبة – كجزء من نظريته الأخلاقية – عند كانت صالحة للمجتمع البشري أم أنها نظرية افتراضية لا تصلح للبشر الذين لا يعرفون لا مصالحهم، وهنا سيناقش البحث طبيعة البشر عند كانت هل هي طبيعة خيّرة أم أنها طبيعة شـــريرة. كذلك ســـيناقش البحث أصـــل الفعل الأخلاقي ومصدره، باعتباره أحد الأساسات الكبرى لفلسفة كانت النقدية في نظرية الأخلاق، وقد تطرق فيلسوفنا لهذه الأسس ضمن ثلاثة أسئلة كبرى، وهي: ماذا يمكنني أن أعرف؟ وماذا يمكنني أن أؤمن؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟ وســـيناقش البحث علاقة مفهوم الإرادة الطيبة بجملة من المفاهيم الأخلاقية كمفهوم الحرية والقانون الأخلاقي ... كما أن البحث سيحاول الإجابة عن أهمية الإرادة الطيبة كونها مبدأ من مبادئ العقل العملي متســـائلاً عن طبيعة هذه المبادئ ومدى اختلافها عن مبادئ العقل النظري، ذلك أن موضوعات الأخلاق عند كانت تنتمي إلى عالم من الموضـوعات المتعالية، متسـائلين كيف يمكن تأسـيس ما هو معاش وتجريبي على ما هو متعالٍ، من خلال تناولنا لمفهوم الإرادة الطيبة وطبيعته وكيف يؤســـس لمفهوم العقل العملي، وهل يمكننا أنْ نعد الإرادة الطيبة من الموضوعات المتعالية.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، العقل النظري، العقل العملي، الإرادة الطيبة، التعالي، التجربة، الحرية.

تاريخ الإيداع: 2024/06/12
تاريخ القبول: 2024/07/18

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

Good Will and its rol in establishing the concept of practical Mind at Kant

Esra-a Mohammad Rasol khadro[1*]
1- holds a masters degree in philosophy from the college of arts and humanities, Damascusuniversity.
*-esraa.khodro@damascusuniversity.edu.sy

Received: 12/06/2024
Accepted: 18/07/2024

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

Abstract:

Kant was not the first philosopher to address the origin and source of the moral act, but the most important philosopher to discuss ethical issues, as a dimension of the classical philosophy based on metaphysics, logic, knowledge theory and ethics. And what can I believe? And what can I do? The topics of these questions were considered to be divided into two types of phenomena:
1. Naman: Which are things of itself, we cannot know as such as subjects of self, freedom and immortality, which we believe in and cannot know.
2. phenomen: things that appear to the mind by experiment..
Ethics subjects belong to the first type of subjects. Here, the problem arises of the relationship between living moral phenomena belonging to a world of subordinate subjects. How is what is a pension and experimental based on what is superior, through our approach to the concept of good will and its nature and how it establishes the concept of a practical mind, and can we prepare the good will of the subjects.

Keywords: The Oretical Mind, Practical Mind, Good Will. Come on. Experience. Freedom.

المقدمة: Introduction:

لو أحصـــينا العبقريات التي أثّرت في تاريخ الفلســفة فقســمت ذاك التاريخ إلى ما قبله وبعده، ســنجد أن كانت يتســيّد مثل هذه العبقريات، فهو يقف على رأس فلسفةٍ سُمّيت باسمه وهي الفلسفة النقديّة.

إن هذه الرؤيا النقديّة ناقشـت مختلف أقسـام الفلسـفة في حينه، وأفردت العديد من الصـفحات لمناقشـة قضـايا الميتافيزيقا والفيزيقا ونظريّة المعرفة وقضايا الأخلاق، وقد حاول كانت اختزال موضوعات الفلسفة في ثلاثة محاور أساسية:

– المحور الأول: حاول من خلاله الإجابة عن سؤال المعرفة بقوله: ماذا يمكن أن أعرف؟ وقد طرح رؤيته النقديّة حول هذا المحور في تصـــورات عميقة تشـــرح لنا إمكانيات العقل وقدراته في المعرفة، من خلال بســطه لآليّة المعرفة لموضـــوعات العالم الخارجي (الفينومن) ضمن كتابه نقد العقل المحض.

–المحور الثاني: وهو المحور الذي ألزم فيه كانْت نفسـه مناقشـة قضـايا الميتافيزيقا، ولكنه لم يطرح قضـاياها كما طرحها الفلاسـفة السابقون عليه كقضـايا يجب البرهنة عليها كما فعل ديكارت وغيره من الفلاسفة المؤمنين، أو قضـايا يجب علينا دحضـها من خلال موقف إنكاري إلحادي.

لقد حاول كانت أن يطرح آراءه النقديّة حول الدين وعموم قضـايا الميتافيزيقا (النومن) بصـيغة سؤال استفهامي: ما هو المسموح لي أن آمل فيه؟ والتأمل هنا في موجودات الكون، فهناك ما هو عصـيٌّ على المعرفة؛ لأن أدوات المعرفة عند الإنسـان غير قادرة على سلك الدروب الموصلة لها، وموضوعات يمتلك العقل القدرة على فضّ غمارها، وكانت موضوع المحور الأول، أما تلك التي لا أمل للعقل بالتوصـل إلى إثباتها أو دحضـها–ناهيك عن التعرف على ماهيتها– فهي حقلٌ للإيمان والتسليم بقضـاياه دون القدرة على فهم طبيعة موضوعاته التي تدخل في حيز النومن غير القابل للمعرفة.

– المحور الثالث: وهو المحور الذي تناول فيه كانت الأحكام والقضـــايا الأخلاقيّة، وحاول أنْ ينشـــئ حولها نظريته النقديّة الأخلاقيّة فيما يخص سؤال السلوك والعمل: ماذا يمكنني أن أعمل؟

لقد كان سـؤال الأخلاق من أكثر الأسـئلة إلحاحاً على ضـمير كانت وعقله، وقد بنى نظريته الأخلاقيّة على أسـس معينة، وكان عمادها مفاهيم عديدة؛ كمفهوم الحكم الأخلاقي ومفهوم الواجب والإرادة الطيبة والقانون الأخلاقي، وعدة مفاهيم أخرى كمفهوم الفضيلة والسعادة، وهي مفاهيم قديمة ناقشها أغلب فلاسفة الأخلاق السابقين عليه، لكنها اتخذت معه ثوباً قشيباً آخر يجعلها تحمل هويّة مختلفة مشبعة بأبعاد نقديّة لم تألفها الفلسفة الأخلاقيّة من قبل.

سـنركز في بحثنا على ركن من أركان المحور الثالث، وسـنناقش فيه مفهوم الإرادة الطيبة، وعلاقتها بالعقل العملي باعتباره شـرطاً أولياً لها، ومن ثم سنعرض لأهمية الإرادة الطيبة في المنظومة الأخلاقية، وشروط الإرادة الطيبة في المنظومة الأخلاقية.

إن بحثنا هذا سـينوس في منطقة بين المحور الثاني والثالث، أي بين معرفة الموضـوع الميتافيزيقي والموضـوع الأخلاقي، أي: دورُ جانبٍ من الأخلاق في تأسيس العقل العملي الذي هو مبدأ ميتافيزيقي لا ينشأ عن التجربة والإحساس والعقل النظري، وهنا يحق لنا التسـاؤل عن طبيعة الإرادة الطيبة كأحد منتجات العقل العملي هل هي موضـوع قابل للمعرفة، كما هي موضـوعات التجربة، أم أنه موضوع نومن عصيٌ عن الفهم والمعرفة كموضوعات الميتافيزيقا.

ســـنناقش في هذا البحث واحداً من المفاهيم الأخلاقية التي اعتمد عليها كانت في بناء نظريته الأخلاقية وهو مفهوم الإرادة الطيبة، وإنَّ البحث في ماهية هذا المفهوم وطبيعته، ودوره في بناء النظريّة الأخلاقيّة، وموقعه ضـمن مقولات العقل العملي، وشـكل الوجود

لهذا المفهوم: هل ينتمي إلى مقولات النومن أو الفينومن، هو ما سيكون السؤال الإشكالي لهذا البحث، وسينتج عن هذا السؤال الإشكالي العديد من الأسئلة الفرعية التي ستشكل مطالب البحث ككل، ومن هذه الأسئلة:

- ما هي طبيعة الإرادة الطيبة في النفس البشرية؟ هل هي قوة مفارقة، زرعها الله في قلب كل إنسان أم أنها مفهومٌ عقلي؟ وإن كانت كذلك هل هي من مفاهيم العقل النظري الخالص؟ أم أنها من مفاهيم العقل العملي الخالص؟
- ما هو دور مفهوم الإرادة الطيبة في بناء حكم أخلاقي؟
- وما هي علاقة هذا المفهوم بمختلف المفاهيم الأخلاقية التي شكّلت عماد نظرية كانت الأخلاقية؟ كمفهوم القانون الأخلاقي، والواجب الأخلاقي ومفهوم الحرية؟
- ما هي علاقة الإرادة الطيبة بمفهوم التجربة، وهل هي من منتجاتها؟ أم أن التجربة إذا لامست الإرادة الطيبة أفسدتها؟

أهمية البحث:

إن أهمية البحث تنبع أساساً من الأسئلة التي أراد أن يتصدى لها، ونوعية هذه الأسئلة من حيث العمق، ومن خلال تناولنا لفكرة أخلاقية عند فيلسوف من الطراز الرفيع الذي أحدث نقلة نوعية في الفلسفة الأوروبية على صعيد وعينا بموضوعات الفلسفة الأخلاقية، فإننا نكون أمام بحثٍ هام على صعيد الفلسفة الأخلاقية، ولعل الأهمية العظمى للبحث لن تكون من خلال الكشف عن ماهية الإرادة الطيبة عند كانت فقط، بل في الكشف عن نقطة تماس بين الموضوع الميتافيزيقي والموضوع الأخلاقي عند كانت باعتبارهما موضوعين من موضوعات العقل العملي كنومن لا يعطى لنا عن طريق العقل النظري والتجربة والإحساس.

الدراسات المرجعية:

هناك الكثير من الدراسات التي تناولت نظرة كانت للأخلاق ومبادئ هذه النظرة كمبدأ الإرادة الطيبة، إلا أن واحدة منها لم تعرض للإرادة الطيبة من خلال ارتباطها بالعقل العملي، هذه العلاقة التي وردت في كتب كانت لماماً وتحديداً في كتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق الذي سيكون مصدرنا الرئيس إلى جانب بقية كتبه الأخرى، وفي مقدمتها: الدين في حدود العقل، ونقد العقل العملي، كذلك نقد ملكة الحكم.

ومن الممكن عرض بعض الدراسات التي ناقشت مفهوم الإرادة الطيبة كدراسة حسام المنفي بعنوان نظرية الإرادة الطيبة عند ايمانويل كانت https://www.ahewar.org/debat/show.art

وقد اعتبرت الإرادة الطيبة الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعد خيراً في ذاته، لأنها لا تستمد خيريتها من المقاصد التي تحققها، وقد حاول الباحث دراسة عنصر الإرادة الطيبة باعتباره أحد أركان المذهب الأخلاقي عند كانت، دون أن يتطرق لعلاقة الإرادة الطيبة مع العقل العملي، وهذه العلاقة تحديداً هي من مقاصد بحثنا، إضافة لما تحمله الإرادة الطيبة من علاقات مع مبادئ أخرى تنطلق من العقل العملي.

كذلك هناك دراسة أخرى بعنوان أخلاق المبادئ والغايات بين كانط وجون ستيورات مل، مقدّمة من الطالب موسى السنوسي المهدي، إشراف الدكتور محمد الأمين محمد، عام 2008، جامعة سبها، وهي دراسة تهتم بالإرادة الطيبة باعتبارها مبدأً أخلاقياً يساعد على تكريس مسألة الواجب الأخلاقي، دون أن يتعرض للتأسيس الفلسفي لمبدأ الإرادة الطيبة باعتباره مبدأ صادراً عن العقل العملي ولا يخضع للتجربة، وهذا ما نسعى للكشف عنه.

سبب اختيار البحث:

لقد شكّلت فلسفة كانت مفترق طرق في الفلسفة عموماً وفي المذاهب الفلسفية المثالية على وجه الخصوص، فكلّ نهل من أفكاره النقدية حول طبيعة المعرفة وماهي الموضوعات التي يستطيع العقل أن يتفهمها، وتلك التي تفرض عليه على صعيد الإيمان، وعلى الصعيد الشخصي كنت أسأل نفسي سؤالاً ألح على عقلي وكياني، هل هناك صلة بين الموضوعات الثلاثة، وما هو الفرق بين العقل العملي والعقل النظري، ولماذا لا تكون المبادئ الأخلاقية التي شكلت عماداً للفلسفة الأخلاقية عند كانت من مبادئ العقل العملي وليس النظري، ألا يمكننا أن نستخرج مبدأ الإرادة الطيبة ومبدأ الواجب الأخلاقي ومبدأ الحرية في الاختيار والمسؤولية الأخلاقية من التجربة الأخلاقية وليست مبادئ عقلية عملية خالصة، وما معنى أن تكون هذه المفاهيم معانٍ ومفاهيم مستخلصة من العقل العملي الخالص؟

إن هذه الأسئلة وغيرها شكلت دافعاً أساسياً لاختيار موضوع البحث على وجه الخصوص، وأن تكون وجهته وجهة أخلاقية تتحرى مبدأ الإرادة الطيبة في فلسفة كانت الأخلاقية.

منهج البحث:

إن منهج البحث مرتبط بموضوعه، وأن موضوع بحثنا يتطلب منّا استخدام المنهج التحليلي الذي سيكون أداة فعّالة لفهم الخطاب النقدي عند كانت عموماً ورؤيته الأخلاقية على وجه الخصوص، وإن استخدام هذا المنهج سيساعدنا على بيان طبيعة الإرادة الطيبة ضمن المنظومة الأخلاقية عند كانت، كما أن المنهج المقارن يأخذ بيدنا لمزيد من المقارنة بين مفهوم الإرادة الطيبة ومختلف المفاهيم الأخلاقية، كذلك فإنَّ المنهج التاريخي يبين لنا أصول فكرة الإرادة الطيبة على المستوى الفلسفي.

إنّ طبيعة الإشكاليّة التي يعالجها البحث، وما أفرزته من أسئلة فرعية شكلت مباحث هذه الموضوع ومطالبه التي ستنبسط من خلال المخطط الآتي:

- مقدمة:
- المبحث الأول: مفهوم الإرادة الطيبة وطبيعتها.
- المبحث الثاني: العقل العملي باعتباره شرطاً أولياً للإرادة الطيبة.
- المبحث الثالث: أهمية الإرادة الطيبة في المنظومة الأخلاقية عند كانت.
- المبحث الرابع: شروط الإرادة الطيبة في المنظومة الأخلاقية الكانتية.
- خاتمة.

المبحث الأول: مفهوم الإرادة الطيبة وطبيعتها:

لقد شكل مفهوم الإرادة الطيبة في الفلسفة الأخلاقيّة الكانتيّة ركناً أساسياً في نظريته الأخلاقيّة، فما هي طبيعة هذا المفهوم الأخلاقي عنده؟ وهل هو من منتجات التجربة أم من معطيات الميتافيزيقا؟

من نافل القول أن كانت فرّق بين نوعين من الموجودات التي يمكن للفلسفة مناقشتها، أولهما: ظواهر الطبيعة التي تحكمها قوانين ضروريّة قابلة للملاحظة والتجربة وحكمها حكم وجود، ولهذه الظواهر جانب ميتافيزيقي لا يمكن للعقل ملاحظته والوصول ليقينٍ ما حوله، وثانيهما: ظواهر أخلاقيّة تنتمي لعالم الإنسان وأحكامها أحكام وجوب، وتحكمها أحكام الحريّة لا الضرورة.

المطلب الأول: النظرة اللاهوتية في تفسير الإرادة الطيبة:

يذهب كانت إلى أن الأشكال القديمة من الدين كانت نتيجة الخوف من الخرافات ومن فكرة استعداد العقل للعبودية وطموحات الكهنة التي لا تعرف الرحمة في إخضاع حياة الناس، ولكن لا يعني هذا التخلي عن الدين في تفسير الظواهر الأخلاقية عند كانت.

يتتبع كانت النظرة الإلهية في أصل الأخلاق ليستنتج منها معنى الإرادة الطيبة، وهي نظرة ترى الإنسان مركزاً الكون، وأن هذا الكون سيغدو وجوده عبثياً من دون الإنسان(كانط ، 2012، 270).

"" وهذا يعني أنه من دون الإنسان تكون الخليقة بأسرها مجرد صحراء، لا فائدة منها ولا غاية نهائية، ولكن لا يستمدُّ وجود كل شيء سواه في العالم قيمته بالنسبة إلى ملكة لديه (العقل النظري) كأن يكون وجود شخص ما مثلاً يستطيع أن يتأمل العالم أمراً ضرورياً لأنه لو كان تأمل العالم هذا لا يتيح له سوى تمثل الأشياء من دون غاية نهائية، فعندئذ لن يكسب وجودها أي قيمة من مجرد هذه المعرفة؛ فلا بد من افتراض غاية نهائية لها""(كنت، 2005، 407)، مما يعني أن التصور الديني ليس معطىً غيبياً، بل هو مجرد تصور لعقل نظري ما=(لرجال الدين).

فالدين مصدر أمل للصالحين، ولا يدخل في بواعث طاعتهم للقانون، ولكن كانت ينادي بأن الأخلاق ذاتها خالية بتمامها من كل مضمون ديني، فكنه الأخلاق لا يقودنا إلى الدين، (بوترو، 1971، 382) ولكي يكون للفعل طابع ديني يلزم ويكفي أن يعبر عن إذعان الفرد لكائن مثالي يجاوزه، إنه إرادة الفرد أن يحيا عضواً من أعضاء الكل الذي ينتمي إليه على نحوٍ مثالي يجاوزه، وأن تحيا من أجل الكل هو أن يكون الروح الديني مصدر إلهامك(بوترو، 1971، 383).

يرى كانت أن الفعل الأخلاقي لا يمكن أن يكون مستمداً من التسلسل السببي، بل يجب أن نستلهمه من مملكة الله في عالم ما وراء الطبيعة باعتبارها معطى سابقاً على التجربة. فحرية الفعل الأخلاقي كمفهوم الوجود ذاته الذي يرى كانت أننا لا يمكننا أن نبرهن عليه إذا ما تعلق بمملكة اللاهوت(وود، 2014، 151).

من خلال ما سبق نتبين محاولة كانت انتقاد التصور الكنسي الذي ارتأى أن الله خلق العالم خدمة للإنسان، الذي هو سيد المخلوقات على الإطلاق، وهذا أمرٌ منافي للمنطق عند كانت الذي يربط وعي العالم المادي الظاهر أمامي بالعقل النظري، ولا يستطيع هذا العقل من ثمَّ أن يكون مصدراً لوعيي عن نية الخالق بأن يكون الإنسان هو مقصد الله لوجود الكائنات، أو أن غاية خلق المخلوقات هو الإنسان، فالإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحدس التجريبي لأصل العالم.

ويرى كانت أن هذا التصور السابق لغاية الخالق من خلق العالم هو تصور يُرضي سعادة الإنسان وغروره، ولا يمكننا أن نتصور أن الكون ينتظم بقوانين من أجل سعادة الإنسان، فتجعل وجوده ممتعاً، وذلك من أجل أن يتوفر على أساس عقلي للتمسك بالقول أن على الطبيعة أن تنسجم مع سعادته إذا ما اعتبرت ككلية مطلقة، (كَنْت، 2005، 407)، وينتهي كانت إلى أنه ليس لدينا ملكة حكم حقيقية تحكم على الطبيعة سوى الإحساس الذي هو بطبيعته تابع للطبيعة، فما يوجد عند الإنسان هو الإرادة الطيبة التي تمنح وجوده قيمة مطلقة.

وإذا أردنا أن ننسجم مع الرؤيا الدينية للإنسان باعتباره غاية نهائية للخليقة، فلا يمكننا أن نفهم هذه الرؤيا بحكم العقل البشري السليم إلا أن يكون الإنسان كائناً أخلاقياً، ولن يكون كذلك إلا إذا امتلك إرادة طيبة، فما الفائدة من امتلاك الإنسان كل المواهب التي تؤدي لسعادته (كَنْت، 2005، 408) فالإرادة الطيبة هي غاية غير مشروطة لكل الغايات المشروطة بحاجات مادية.

المطلب الثاني: طبيعة الإرادة الطيبة:

إن أهم خاصـيّة تتمتع بها الإرادة الطيبة عند كانت هي خاصـيّة الاسـتقلال الذاتي التي تتخذ منها قانوناً لنفسـها، فلو أن ذاتاً ما أقدمتْ على فعل أخلاقي بناءً على دوافع خارج اطار عقلها فإنها لن تمارس الإرادة الطيبة، فيجب أن"" يَعُدَّ العقل نفسـه مصـدر مبادئه، مستقلاً في ذلك عن التأثيرات الغريبة عنه، كما يجب عليه تبعاً لذلك، بوصفه عقلاً عملياً أو إرادة كائن عاقل، أن يعد نفسه حراً، إن إرادة الكائن العاقل لا يمكن أن تكون إرادة ذاتيّة إلا بالقياس إلى فكرة الحريّة، وهكذا ينبغي لمثل هذه الإرادة، من وجهة النظر العمليّة أن تضـاف إلى جميع الكائنات العاقلة""،(كانت، 2022، 150) وبذلك يمكننا التمييز بين ظواهر الطبيعة التي تحكمها قوانين الإكراه والضـرورة المطلقة، وبين ظواهر الأخلاق كالإرادة الطيبة التي تسـتند إلى مفاهيم قبليّة كفكرة الحرية، ذلك أن العقل العملي المحض من حيث هو ملكة تعيين الاسـتعمال الحر لتجربتنا بواسـطة أفكار عقلية محضـة، ويمكن القول أن العقل العملي وحده من خلال مبدأ عملي مفهوم من قبل العقل العملي وحده بحسب قانون الحرية، وقد عُين لنا قبلياً من قبل العقل العملي الخالص أن نعمل بكل قوانا من أجل التسامي نحو الفعل الأخلاقي.

لقد ذهب كانت إلى أن مفهوم الإرادة الطيبة هو أساسٌ لأي فعل يمكن أن نطلق عليه أنه فعل أخلاقي، فهي بحسب المنظومة الكانتيّة نوع من العليّة للأفعال والخصائص التي تتصف بها الكائنات الحيّة العاقلة، ولن يكتمل تصورنا لهذه الإرادة إلا بوصفها بصفة الحريّة، فحتى المثقف يجب أن يحارب بشجاعة وتحدٍ وحرية للحصول على الحقيقة وفق مبدأ الإرادة الطيبة (حمد، 2014، 348).

إن الإرادة الطيبة الحرة هي الإرادة التي تساهم في توجيه ذواتنا لإنتاج قانون أخلاقي يصلح للبشريّة جمعاء، من خلال مبدأ مستقل عن ضـرورات الحياة اليوميّة.(كانت، 2022 ، 145) لذلك علينا تفحص مبادئ هذه الإرادة الطيبة باعتبارها مفهوماً قبلياً تتأسس عليه ميتافيزيقا الأخلاق، وليس تفحص أفعال وشروط الإرادة التي هي من اختصاص علم النفس النظري، لذلك يجب علينا تفحص الإرادة الطيبة باعتبارها حجر الزاويّة في نظريّة كانت الأخلاقيّة التي ترى أن أهم صـفة للفعل الأخلاقي ابتعاده عن الذاتيّة، والتزامه القانون الأخلاقي بعيداً عن أي منفعة، فكيف يتسنى لهذه الإرادة أن تكون طيبة أصلاً؟

ينطلق كانت في تصـوره لطبيعة الإنسـان أولاً، ومن ثم لطبيعة الإرادة الطيبة من تصـورٍ ميتافيزيقيٍ اسـتمدّه من نظريّة روسـو في الطبيعة البشريّة، فقد أثّرت نظريّة روسو في صياغة كانت لمفهوم الإرادة الطيبة على النحو الآتي:

ذهب روسو إلى أن الإنسان كائن خيّرٌ بطبيعته، وأن رغباته ومشاعره واندفاعاته متّحدة بالكون المادي من حوله، إلّا أنَّ بؤس الإنسان جعل منه كائناً مزوداً بالتفكير الذي أفسده من خلال ميل هذا الفكر لبعض الصـفات النفسـية كالرغبة بالتفاوت والسـلطة وتلبيّة الدوافع المتوهمة، فأدمنها وتعوّد عليها، وحتى يحمي نفسـه، ويوفر ضـرورات إدمانه لحاجات متوهمة ومتعاظمة، اخترع الفنون والعلوم، فأدى ذلك لتراكم السـلطة والمال بيد جماعة دون غيرها، وذلك جراء بعض التميز الفكري الذي تمتلكه هذه الفئات، فنشـأتْ السـلطة القاهرة لتحمي هذا التميز وهذا النفوذ، ممّا أدّى لتبلور فكرٍ ونظريات فلسفيّة ودينيّة تبرر هذا التفاوت بين البشر، واقترح كثيرٌ منهم تغليب قوى العقل النظري على قوى العقل العملي وفي ذلك–كما يرى كانت– قلبٌ لقوانين الطبيعة"" فأضـاع الإنسـان نفسـه بعد أن أفسـده غرور التفكير، وأوصـله الكشـف عن قوانين الطبيعة إلى نهبها وتدميرها وإلى اسـتعباد البشـر الذين يملكونها""، (كنت،2008 ،16) مما يعني أن العقل النظري سينساب وراء مصلحة الإنسان الظاهريّة، أما مصلحته الحقيقيّة فلن يستطيع بلوغها إلا بالعقل العملي الذي يجب أن يتسيّد على العقل النظري ذاته، ولكن من أين يستمد العقل العملي مشروعيّة الحكم على الفعل الإنساني؟

المبحث الثاني: العقل العملي باعتباره شرطاً أولياً للإرادة الطيبة:

يذهب كانت إلى أنَّه للإرادة الطيبة أسبقيّة في تصور أي عمل أخلاقي، فلو افترضنا شروطاً تساعد على تحقيق إرادة خيّرة ما، فإنَّ هذه الشروط تفترض إرادة خيرة سابقة عليها، ذلك لأنَّ أي خاصيّة ذاتيّة حسنة للكائن تساعده في مزاولة الفعل الأخلاقي:كالسّيطرة على النفس، والاعتدال في العواطف، والاتزان في الرأي، لا قيمة أخلاقيّة لها دون أن تسبقها إرادة خيّرة، فلا أهميّة لها في ساحة العمل الأخلاقي، هذا يعني أن القيم المختلفة وخواص الذات التي تسمى حسنة، هي ليست حسنة بذاتها، وليست ذات قيمة بذاتها، بل تصبح كذلك إذا ما وُظّفت بشكل إيجابي، ونقول ذلك لأن هذه القيم قد تُوظف بشكل سلبي،(كانت، 2008، 39) ، ولكن كيف يُقرّ كانت بهذه القضيّة:إنَّ الإرادة الطيبة هي صاحبة المرجعيّة لأي حكم أخلاقي، ويوصف مذهبه الأخلاقي بأنه مذهب عقلي نقدي، وقد جعل من العقل قيّماً على كل فعل أخلاقي، وأن العقل هو المصدر الأساسي له، فهل يعني ذلك ازدواجيّة المرجعيّة، وأن الفعل الأخلاقي يجب أن يصدر عن العقل العملي الخالص، وعن إرادة ونيّة طيبة، أم أن أحدهما يسبق الآخر وله الأولويّة؟

يرى كانت أن العقل النظري لا يصلح لقيادة الإرادة الطيبة، لأن الأخيرة هي مبدأ كل فعل أخلاقي، ولكن هذه الإرادة الطيبة لا يمكن أن تكون ناتجة عن التجربة المتغيرة والنسبيّة، فالتجربة هي تعيين للمصلحة وللميل وللهوى، وهذه متغيرة، ولأنها متغيرة لا تصلح لأن تكون معياراً نقيس من خلاله الفعل الإنساني، بل أنها مبدأ أولي قائم بطريقة قبلية في العقل، ولا يمكن استخلاصها من أي تجربة لأن التجربة هي تعيين لمصلحة، وقد أراد كانت أن ينهض بالأخلاق لتصبح سلوكاً يتعين على أساس العقل الخالص، ولكن ليس بالمعنى النظري الذي يُعنى بالتجربة والمعرفة الحسيّة وظواهر الأشياء، وليس بالمعنى الميتافيزيقي الذي يخصُّ جانب الإيمان بالنومن، إنما من خلال مبادئ عمليّة يسنّها العقل، إنها مبادئ تساعدنا ونهتدي بها، فهي الموجه الحقيقي لحياتنا وسلوكنا الأخلاقي، ولكننا في كل مرة، عندما"" نضيف إليها عنصراً تجريبياً إنما نسلبها بالمقدار نفسه أثرها الأصيل ونجرد الأفعال من قيمتها المطلقة .. إن من أهم الأمور من الناحيّة العمليّة أن تستقي تصوراتها وقوانينها من العقل الخالص، وأن نقدمها نقيّة خالصة غير مختلطة بشيء.. وأن نتحاشى بذلك أن نجعل المبادئ متوقفة على الطبيعة الخاصة للعقل الإنساني""(كانت، 2022، 75) وبذلك يُقرُّ كانت أن الإرادة الطيبة–باعتبارها مبدأ للفعل الأخلاقي– لا تخرج عن مبادئ العقل العملي لكي تكون صالحة لكل كائن عاقل، أما إذا أخذنا الإرادة الطيبة كتعينات واقعيّة تناسب وقائع جزئيّة، فهي كذلك مبادئ ثابتة في العقل البشري، للفعل الإنساني المتعين، وهي بذلك موضوعاً للأنثربولوجيا، ومن خلال هذا الإجراء نتمكن من إنزال وتطبيق هذه القوانين العامة التي تعينها الإرادة الطيبة على الواقع المعاش، فنميز بينها على أساس المعيار الذي يحدّده العقل، فنتبين أيُّها هو فعل أخلاقي وأيُّها يصدر عن هوى أو ميل أو مصلحة أساسها التجربة، ويظهر من هذا الفحص للفعل الأخلاقي أن الإرادة إذا كانت تسعى إلى أن تكون حسنة، فيتعين أن ينظر إليها من حيث كونها تبتعد عن كل تقييم منفعي، لأن من شأن هذا التقييم أن يجعل الإرادة سيئة إن غابت النيّة عنها.

ويمكننا أن نكتشف علاقة أخرى بين العقل والإرادة بعيداً عن كونها الأداة في تعيين الواجب، علاقة قائمة على المماهاة بين الإرادة الطيبة والعقل العملي، وتتكشف هذه المماهاة بالتمييز مرة أخرى بين أفعال الطبيعة التي تخضع لقوانين تقوم على مفهوم الضرورة، وإمكانيّة التنبؤ بالمستقبل، وتقلُّ فيها نسب الاحتمال؛ لثبات العلاقات بين مظاهر الطبيعة، وبين أفعال الكائن البشري العاقل، وهو وحده الذي يملك الحريّة في التصرف، وبهذا المعنى فإن الإرادة الطيبة تمنح الفعل البشري إمكانيّة عدم التنبؤ به، ولكنها تسمح بتعيين السلوك بحسب تصور القوانين، وتعطي كثيراً من اليقين والضرورة والتعين"" ولمّا كان العقل مطلوباً لأجل استنباط الأفعال

من القوانين، فليست الإرادة سوى عقل عملي""، (كانت، 2002 ، 77) ولكن كيف يمكننا أنْ نتصور هذه العلاقة بين الإرادة الطيبة والعقل العملي؟

يمكننا فهم مقولات الأخلاق القبليّة عند كانت: الإرادة الطيبة، الواجب.. باعتبارها مفاهيم سابقة على التجربة، وتساعد العقل العملي في تعيين السلوك الأخلاقي. وإذا ما قمنا بمقارنة بين هذه المقولات الكانتيّة والمُثل الأفلاطونية، نستطيع القول أنَّ تصوّر مهمة هذه المقولات الأخلاقيّة وطبيعتها ووظيفتها في العالم الأخلاقي، قد استمده كانت من مقولات عالم أفلاطون المثالي باعتبارها صوراً أولى للأشياء نفسها، وليست مجرد مفاتيح لتجارب ممكنة، فإذا أردنا أن نبحث في المجال العملي عن مثال للفضيلة في صورة إنسان يمشي على الأرض فإننا سنبحث دون جدوى، ولا مفرَّ من تصور الإرادة الطيبة كأنموذج أول نحتذي به في أفعالنا التي تتمتع بواقعيّة حقيقيّة تساعد العقل العملي على تصور الفعل الأخلاقي،(كانت، 2002، 77).

بقي أن نشير بشأن العلاقة بين الإرادة الطيبة والعقل، أن العقل يلعب دوراً مهما في تعيين الإرادة على أنها إرادة حرة، وأن مصدر حريّة الإرادة ينبع أساساً من تعيين العقل لها على أنها مستقلةً عن كل النوازع والميول ولا تخضع لشروط ذاتيّة، فإذا ما حققت الإرادة هذا الشرط غدا وجودها ضرورة موضوعيّة، ولكن إذا لم يتحقق فعل الخير فمعنى ذلك أن الإرادة ليست حرة بما يكفي لتحقيق أمر العقل المطلق؟

إن العقل العملي يعطي مفهوم الحرية حقيقة موضوعية للفعل الأخلاقي القائم على السببية النومينية التي تختص بعالم ما فوق المحسوس الذي يتكون من تلك الكائنات، فالقانون الأخلاقي هو قانون وجودنا المعقول، إن ميدانه هو ميدان الظاهرات كمواضيع لكل تجربة ممكنة بوصفها تكون ذات طبيعة محسوسة، أما التشريع الذي يتعلق بمفهوم الحرية هو ذلك الذي يشرع فيه العقل مُحدداً هذا المفهوم في ملكة الرغبة، أي في مصلحته العملية الخاصة به بوصفها تكون طبيعة ما فوق محسوسة، وذلك لوجود تباين بين ميدان الأخلاق القائمة على مبادئ العقل العملي، وبين ميدان التجربة القائمة على مبادئ العقل الخالص.(دولوز، 1997، 52).

وقد أثّر مفهوم العقل العملي الذي استحدثه كانت على الفلسفة الأوروبية، فقد تحدث شوبنهاور عن العقل العملي باعتباره عقلاً موجهاً لأفعال الإنسان، ويصرح أن هذا العقل بماهيته وقواه هو نفس العقل الذي اعتبره كانط"" المصدر المباشر لكل فضيلة وعرش الأمر المطلق"" (شوبنهاور،2006، 172)، ويتجلى العقل العملي عندما يكون السلوك خالياً من أي تمثلات جزئية، فملكة العقل العملي تتجلى بطريقة عملية في العالم ، وتؤثر على سلوكنا عندما تكون دوافعنا مجردة وسلوكنا غير محكوم بتمثلات الإدراك العياني، ففي هذه الحالة فقط تظهر لنا تجليات العقل العملي الخاص بأفعال الإنسان.(شوبنهاور، 2006 ، 172).

وهذا يعني أن التصورات الأخلاقية تابعة لملكة العقل لا الذهن، لارتباط الأخيرة بالإدراك العياني، ولكن من هو المتحكم بالفعل الأخلاقي في هذا المستوى من العقل.(شوبنهاور ، 2006، 103– 110).

المبحث الثالث: أهميّة الإرادة الطيبة في المنظومة الأخلاقيّة عند كانت:

يذهب كانت إلى أن مختلف الصفات الطبيعيّة التي يمكن أن تكون في إنسان ما لا قيمة أخلاقيّة لها دون إرادة طيبة تُسَخِّرُ وتوجه هذه الملكات نحو الخير،"" فالقوة، والغنى، والشرف، بل الصحة نفسها والهناء والرضا عن الحال، مما درجنا على تسميته بالسعادة، قد يتولد عنها الاعتزاز بالنفس الذي قد ينحرف في أغلب الأحيان فيصير غروراً واختيالاً، هذا إن لم يكن ثمة إرادة خيّرة تُصلح من أثرها على الوجدان وتوجهها نحو غايات وأهداف عامة وتصحح مبدأ السلوك كله""(كانت، 2002، 38).

إذاً لم يتعرض كانت للإرادة الطيبة من منطلق معالجتها للخير فقط، بل تعرض كذلك لعلاقة الإرادة الطيبة مع الشـر، ورأى أن الشـر بالمعنى المحض لا يمكنه أن يُشتق من الإراداة الطيبة، بل في إطار فلسفته الدينية متسلحاً بفلسفته النقدية، وجاعلاً من الشر إشكالاً مرتبطاً بالعقل والحرية والإرادة، ومؤكداً على أن الشـر في أسـاسـه لا ينفصـل عن تصـور الدين، فنراه يقول في بحثه حول الشـر، منطلقاً من نقدين: الأول منهما تشـــاؤمي والآخر تفاؤلي"" إن العالم خبيث ولا يُطمأن له""(كانط ، 2012 ، 65). ويتجلى الموقف الثاني في الرأي القائل:"" إن العالم يجري، من دون انقطاع وفي وجهة معاكسـة، تعني من السيئ إلى الحسن""(رولز،2017، مقال)، فالعالم يسير نحو الخير، أو من الشيء السيء إلى الشيء الحسن، وهذا الاعتبار هو الذي اعتنقه الفلاسفة الأخلاقيون من بعد كانت، لكنه غيّر رأيه في التصـورين السـابقين وأعتبر أن الخطأ كان حليفهما، مسـتنتجاً أن الإنسـان في ذاته ليس شـريراً وليس خيراً، لكنه يحتوي في ذاته إمكانية قبول الخير والشـر، فالإنســان يولد خيراً بالفطرة لكنه قابلٌ لكلا الاحتمالين، طبعاً لن ننســى أن أهم ما يميز الفعل الأخلاقي والحكم عليه بخير أو شر عند كانت هو النية الطيبة الصادرة عن الفاعل.

هكذا يتبين لنا مركزيّة مفهوم الإرادة الطيبة في تصـويب المنظومة الخلقيّة، فالأعمال بالإرادات الحسـنة،لا بالملكات الحسـنة التي يمتلكها الإنســان ويمكنه أن يوجهها إلى عملٍ غير أخلاقي، فالإرادة الطيبة هي البوصـــلة التي توجه عمل الأخلاق، بل أكثر من ذلك إنها السـبيل الأهم للسـعادة"" وهكذا يبدو أن الإرادة الطيبة هي الشـرط الذي لا غنى عنه لكي يكون الإنسـان خليقاً بالسـعادة"" (كانت ، 2002 ، 38) فلا عمل أو نشاط أخلاقي دون إرادة صـالحة، فنحن ننظر– بحسب كانت– إلى النوايا بالفعل الأخلاقي لا إلى النتائج"" إن الإرادة الطيبة لا تكون خيّرة بما تحدثه من أثر أو بما تحرزه من نجاح، لا، ولا بصلاحيتها للوصول إلى هذا الهدف أو ذاك، بل إنها تكون كذلك عن طريق فعل الإرادة وحده؛ أعني أنها خيّرة في ذاتها وأنها إذا نُظر إليها في ذاتها فلا بدَّ لنا أن نقدّرها تقديراً يرتفع بها درجاتٍ عن كل ما من شـأنه أن يتحقق بوسـاطتها لمصـلحة ميل من الميول أياً كان، لا بل لمصـلحة كل الميول مجتمعة، وإذا ما شاءت نقمة الأقدار..أن تسلب هذه الإرادة كل قدرة على تحقيق أهدافها، وإذا ما عجزت برغم أشق الجهود التي تبذلها عن إدراك كل شـيء، ولم يبق إلا الإرادة الطيبة وحدها..فسوف تلمع بذاتها لمعان الجوهرة، مثل شـيء يحتفظ في نفسـه بكل قيمته..ولن تزيد المنفعة على أن تكون التغليفة التي تيسـر تداول الجوهرة بين الناس""(كانت،2002،40) فأي فعل أخلاقي لا يقاس بنتائجه بل بنواياه الحسنة، ولو أن فعلاً عظيماً ترك أثراً ونفعاً جليلاً بين الناس، وكانت دوافعه خبيثة، فإن هذه الدوافع ستنقله من حيز الفعل الأخلاقي إلى حيز الفعل العبثي اللاأخلاقي، ولو كان فعلاً صـادراً عن نيّة صـالحة وجرَّ على صـاحبه ويلاتٍ لا طاقة له بها ومشاكل على المستويات كافة، لكان فعله فعلاً أخلاقياً، وأن هذا سيرتفع بهذا الفعل إلى مصاف الأعمال الحسنة، مما يعني التقاء كانت مع التشريع الإسلامي الذي أرجع العمل الصالح إلى النوايا الطيبة.

لقد حاول كانت أن يبني علم الأخلاق على الميتافيزيقا من خلال التأكيد أن مبادئ الأخلاق تُستنتج من العقل العملي الخالص الذي لا يمكن الوصـول إليه عن طريق التجربة (كانط،486،2009) وبهذا المعنى فقد أعاد كانت لعلمي الانطولوجيا والميتافيزيقا دورهما في إمكانية إعادة بناء الأخلاق على أسـس لا دينية ولا نفسـية، بل من خلال مبادئ نقدية تجعل من القيم الأخلاقية مبادئ متعالية تُبنى على معطيات العقل العملي الخالص كأساس للعيش المشترك يقوم على الخير الجمعي لا الفردي.

المبحث الرابع: شروط الإرادة الطيبة في المنظومة الكانتية:

لم يَفصل كانت بين الإرادة والسعادة، وقد اعتبر الإرادة شرطاً أولياً لكل فعل أخلاقي، وقد تناولنا علاقة هذه الإرادة مع العقل لنتبين بعد ذلك مركزيّة هذا المفهوم في منظومة كانت الأخلاقيّة، وبقي لنا أن نكتشف مجمل الشروط التي ترتبط بهذا المفهوم المركزي، وسنقوم أولاً برصد العلاقة بينه وبين مفهوم الواجب، ومن ثم بينه وبين مفهوم الحريّة، وأخيراً مفهوم القانون الأخلاقي.

المطلب الأول العلاقة بين الإرادة الطيبة والواجب الأخلاقي:

يرى كانت أن صحة القانون الأخلاقي تتوقف على ما نتمتع به من حرية، فنحن عندما نفعل فعلاً أخلاقياً نستطيع أن نتصور أنفسنا أننا نفعل ذلك تلبية لنداء الطبيعة ككائنات أخلاقية، أو يمكننا أن نتصور أنفسنا أحراراً في فعلنا الأخلاقي بناءً على قوانين السببية المنطقية.

يذهب كانت إلى أنه لا سبيل أمامنا لأن نكون أحراراً عملياً طالما أننا لا نبرر أعمالنا ونفسرها بسلسلة من العلل السببية بشكل منطقي وبشكل مستقل عن أي أسباب طبيعية يمكن أن تؤثر فينا، وبالتالي فنحن لا نستطيع اعتبار أنفسنا كائنات مسؤولة أخلاقياً ما لم ننسب لأنفسنا القدرة على أن نكون أسباباً حقيقية للفعل الأخلاقي دون أن يكون مفروضاً علينا بسلسلة من العلل الطبيعية التي تجعل هذا الفعل الأخلاقي الذي نظنه فعلاً حراً، فعلاً مفروضاً علينا بسلسلة من العلل الكونية التي لا تترك لنا مناصاً أو أدنى حرية أن نفعل أي فعل بعيداً عما فعلناه(وود،143،2014).

يرى كانت أن الحتمية التي تفرضها السببية الطبيعية التي تسري على أفعالنا بوصفها جبرية لا تتعارض مع كوننا أصحاب حرية في الفعل الأخلاقي، فما تخضع له التجربة من شروط المكان والزمان يخضع له الفعل لأخلاقي، فأفعالنا كحوادث في الزمن تخضع لسلسلة الإطّرادات السببية في الزمان والمكان دون أن يتعارض ذلك مع حرية الفعل الإنساني، لذلك فإن مصدر حريتنا بحسب كانت لا يتأتى لنا من خلال قوانين العقل النظرية ومبدأ التجربة الذي تحكمه ظروف الزمان والمكان ضمن عليّة سببية للطبيعة، فهذه السببية مقيدة لعقلنا وتجربتنا الحسية، لذلك إذا أردنا أن نعتبر أنفسنا أحراراً فعلينا أن نستمد هذه الحرية من مبدأ متعالٍ يرتبط بمبادئ العقل العملي الخالص(وود،145،2014)، كمبدأ الحرية وفكرة الواجب الأخلاقي.

يذهب كانت إلى أن الواجب هو"" ضرورة القيام بفعل عن طريق احترام للقانون""(كانت،51،2002)،ولكن لو كان الفعل نتيجة ميلٍ أو هوى فلن أحترمه كفعل أخلاقي لأنه أثرٌ للإرادة وليس نشاطاً فعّالاً تقوم به، فالإرادة الطيبة هي التي لا يكون انبعاثها نتيجة مصلحة شخصيّة أو ميل، وبالتالي فإن""القيمة الأخلاقيّة للفعل لا تكمن في الأثر الذي يُنتظر من ورائه..مثل رضا الإنسان عن حاله والعمل على إسعاد الغير..من أجل ذلك كان تمثل القانون في ذاته..لا الأثر المتوقع، هو المبدأ المّحدد للإرادة..الذي يؤلف ذلك الخير السامي الذي نَصِفَهُ بأنه أخلاقي""(كانت،53،2002–52) فما يجب أن تَلْتَفِتُ إليه إرادتي حتى تكون خيّرة هو القانون الأخلاقي والذي يعني عند كانت"" الصورة القانونيّة العامة للأفعال على وجه الإجمال"" (كانت، 54،2002–55) أي لا بدَّ أنْ أسقط الحسابات جميعها التي تحقق مصلحة نفعيّة أو تحقق رغبة مدفونة في أعماق نفسي لمساعدةٍ لنفسي أو للآخرين، وأتمثل القانون وحده في صيغته الصورية دون أي تأويل أو تحريف عن مقاصد القانون بصيغته الكليّة.

ويضرب لنا كانت بعض الأمثلة لانبعاث الإرادة غير الحرة عندما تُلبي ميلاً أو هوى أو مصلحة، ولا تلبي الواجب، فأنا عندما أكون في موقف غير لائق وأعِدُ وعداً مع نيّة مضمرة أن هذا الوعد هو من أجل الخروج من مأزقي، ولن أفي به، فأنا أتعامل بإرادة

غير بريئة، ولكن لو قلت لنفسي يجب أن أصدق في كل الأحوال لأن الكذب سيوّلد شراً أكبر، لن يثق الآخرون بي من بعده، فأنا هنا أتعامل بإرادة ليست طيبة وتتعامل مع نتائج الفعل دون التعامل مع الواجب: الذي هو احترام للقانون، القانون الأخلاقي في هذه الحالة الذي يقول: يجب أنْ تصدق في كل الأحوال سواء كان الموقف دفع مضرة، أو استجلاب منفعة لك أو لغيرك على السواء، فالسبيل لكي تكون ارادتي خيّرة أن يكون تصرفي قانوناً عاماً بغضّ النّظر عن الأضرار التي قد تطالني والمخاطر التي قد تُحيق بي، وتصرفي بعدم الإيفاء بالوعد لا يمكنه أن يكون قانوناً عاماً، وبحسب كانت يجب" أن أسائل نفسي: هل تستطيع أن تجعل مسلمتك قانوناً عاماً؟ فإذا كان الجواب بالنفي، فإن المسلمة تكون جديرة بأن تطرح جانباً""(كانت، 2002،57).

وبكلمة واحدة: فإن العلاقة بين الواجب والإرادة الطيبة تتجلى بكون الواجب هو العلة الحقيقيّة الذي يساعد الإرادة الطيبة على التعين والظهور كمبدأ أول للفعل الأخلاقي، والابتعاد بهذا الفعل عن المصالح والمنافع الخاصة والميول النفسيّة التي تحقق رغبات صريحة أو مكبوتة للنفس البشرية.

إن الواجب والإرادة الطيبة هما مبدآن للفعل الأخلاقي سابقين على التجربة، وبينما يشكّل الواجب غايّة للفعل الأخلاقي فإنَّ الإرادة الطيبة تشكل وسيلة أوليّة له تساعد في تعيينه لكي يكون مناسباً للواجب، وأنْ تصوغه كقانون أخلاقي كلي.

المطلب الثاني: دور الحرية في تأسيس مفهوم الإرادة الطيبة:

يذهب كانت إلى استناد الفعل الأخلاقي على مبدأ الحريّة الترنسند نتاليّة التي يجب أن نقف عندها في تفسيرنا لانبعاثه، مثلها في ذلك مثل مبدأ العلة الكافيّة المشروطة بمبدأي الزمان والمكان التي تفسر الفعل الطبيعي التجريبي، فالحريّة هي الوحيدة من بين جميع أفكار العقل التأملي التي نعرف قبلياً بإمكانيتها، ولكن من دون أن ندركها، لأنها شرط القانون الأخلاقي الذي لنا معرفة به، في حين أن فكرة الله والخلود ليست شروطاً للقانون الأخلاقي بل هي شرط للموضوع الضروري لإرادة معينة بهذا القانون فقط..فنحن لا نستطيع الحديث عن تدخل مباشر من قبلهما في الإرادة الطيبة لتُغَيّرْ من طبيعتها، إلا أنها مع ذلك شروطاً لتطبيق الإرادة المُعينة أخلاقياً على موضوعها المعطى لها قبلياً، فنحن يجب أن نقبل إمكانيتها من الناحيّة العمليّة.. دون أنْ نعرفها وندركها نظرياً.(كنت، 2008، 44- 45).

وبهذا المعنى فإنَّ كانت يتحدث عن الحريّة كمفهوم معطى لنا بالمعنى الترنسند نتالي كشرط للفعل الأخلاقي لا نعلم عن طبيعته شيئاً، ويمكننا الحديث بهذا المعنى عن تأثر هيغل بكانت في تصوره لمفهوم الحرية على أنها شرط للفعل الإنساني لا يمكن إدراك كنهها(محمد، 2014، 514- 515) لكن هذا الفعل الأخلاقي مشروطٌ أيضاً بمفهومين متعاليين آخرين وهما: فكرة الله والخلود باعتبارهما شرطين لوجود العالم، الذي هو سبب مباشر لأي فعل أخلاقي باعتباره المعطى الموضوعي الأولي للإرادة البشريّة التي تسعى لتحقيق الحادثة الأخلاقيّة وذلك من خلال التزامها بالقانون الأخلاقي، فالله وخلود العالم يمثلان شروطاً لتطبيق الإرادة الأخلاقيّة على موضوعها المعطى لها قبلياً وهو الخير الأقصى، وبذلك يصبح مفهوما الله والخلود–كمفهومين ترنسند نتاليين–قابلين للإدراك العقلي كشروط مسبقة لقوانين العقل العملي المسؤول عن الفعل والقانون الأخلاقي، دون أن يكونا قابلين للإدراك العقلي كمعطيات موضوعيّة للعقل المحض، ناهيك عن الإدراك التجريبي، من خلال مفهوم الحريّة الذي هو شرط أولي لهما وغير قابل مثلهما للتصور العقلي التجريبي.

إن أول شـروط الفعل الأخلاقي كحقيقة واقعية هو الحرية، وأن مصـدر الحرية هو شـعور داخلي ينبهنا على أننا أحرار، ولكن الحس الداخلي يعطينا ظاهرات يرتبط بعضـها ببعض في الزمان فقط دون المكان، بيد أن الحرية لا يمكن أن تشبه ظاهرة من أي نوع كانت، أنها من طراز مختلف كل الاختلاف، وإذ كانت موجودة فما هي بهذا الشيء المعين، أنها تُفْلِت بالضرورة من الحس الداخلي.

وعلى اعتبار أن الإنسان غير قادر على معرفة خارج حدود التجربة فلا يمكننا أن نصل إلا إلى موضوعات واقعة في الزمان وفي المكان، وكل ادعاء بحدس ذهني ليس إلا تصوفاً، وقد آمن كانت بالتصوف وشطحاته كما آمن تماماً بالحوادث التجريبية، فليس عن طريق علم النفس ولا عن طريق الميتافيزيقا نستطيع أن نصبو لشعور الحرية، وبديهي أيضاً ليس عن طريق التجربة.

يرى كانت أن هناك طريقاً واحدً هو الطريق النقدي، وهو الطريق الذي سـيبحث في العقل لا في الأشـياء، وأن التدليل على وجود الحرية سـيكون من خلال الصـيغة الآتية: أن لك اسـتطاعة لأن عليك واجباً(بوترو،367،1971)، فالعقل يأمرنا بطاعة القانون الأخلاقي، ولن يستجيب الإنسان إلا إذا كان هناك اتساقاً بين القانون الأخلاقي والطبيعة الإنسانية القائمة على فكرة الحرية.

ويرى كانط أن الحرية ممكنة كمصـدر للإرادة الطيبة وباعتبارها أحد منابعها إذا ما اسـتقلّت عن العقل النظري ومنتجاته المادية والشـعورية، ويلجأ كانت إلى فلسـفة ليبنتز لبيان نظرية الحرية، في الزمان و المكان تنسـاب الظاهرات بسـببية آلية كما هو حال الظواهر المادية المقيدة بمقولتي المكان والزمان، ولكن إذا اسـتثنينا مقولتي الزمان والمكان فإننا نصـل إلى الوسـيلة الوحيدة لإثبات الفعل الحر الذي يمكننا أن نتصـوره حراً إذا صـدر عن عالم لا زماني حر تصـدر أفعاله عن عقل عملي خالص، وهذه الحرية لا يمكن أن تختلط بما يسـمى بالإرادة الطيبة، وذلك من خلال الإذعان المطلق للقانون الأخلاقي، لذلك فإن الإرادة الطيبة في ظل الحرية هي تطبيق للقانون والواجب الأخلاقي(بوترو،368،1971-370).

إن الإرادة الطيبة الحرة في ظل الاختيار هي التي تضـع القانون الأخلاقي، مما يعني ارتباط القانون الأخلاقي بالضـرورة: التي هي ضـغط الواقع على الإرادة الطيبة من جهة، وبالإرادة الطيبة المقترنة بالحرية من جهة أخرى، وعلى هذا النحو ترتبط الضـرورة والحرية بالإرادة الطيبة.(بوترو، 1971، 371) ولكن هل كان كانت من أنصار الحرية الفردية؟

يمكننا القول وبكثير من الوضـوح أن كانت أبعد ما يكون عن الحرية الفردية النسـبية، لأن الفعل الأخلاقي الذي يصـدر عن مبادئ العقل العملي هو فعلٌ أخلاقي مشروطٌ بالحرية التي تشترط بدورها على الفعل الأخلاقي أن يكون بعيداً عن الهوى والميل الشخصي الذي يحقق أهدافاً خاصـة لا عامة، وبالتالي فإنَّ العقل العملي والحدس الداخلي والإرادة الطيبة هي شـروط للفعل الأخلاقي الذي سيتحول إلى قانون كلي.

لقد أثّر كانت بالفلسـفة الأوروبية في ربطه بين الحرية والإرادة الطيبة، إلا أن هذه العلاقة اتخذت عند شـوبنهاور شـكل علاقة مع إرادة الحياة لنصبح محكومون لا مفر لنا أمام هذه القوة الجبارة، والتي تُسلمنا في النهاية للموت (هيوستن، 2012، 64)،(بدوي،(د.ت)،257).

المطلب الثالث: العلاقة بين الإرادة والقانون الأخلاقي في منظومة كانت الأخلاقية:

فرّق كانت بين نوعين من القوانين:قوانين الطبيعة وهي موضـوع للعقل النظري الخالص، وقوانين الحريّة التي يندرج تحتها عالما الأخلاق والجمال، فيما يخص المنظومة الأخلاقيّة فإنَّ قوانينها تتعلق بالإرادة الطيبة، فتغدو ملزمة، فكل الأوامر الأخلاقيّة المطلقة يُعبر عنها بفعل{ يجب }""وتدل بذلك على علاقة قانون موضـوعي للعقل بإرادة ما""،(كانت،78،2002)، دون إلزام لهذه الإرادة، فالقانون الأخلاقي الصـادر عن العقل يقدم للإرادة نصـيحة يُبعد من خلالها كل الدوافع الذاتيّة التي يمكنها أن تقوم بتوجيه الإرادة الطيبة وجهة مختلفة عن نداء العقل العملي الخالص.

إن الإرادة الطيبة عند كانت خاضعة لقوانين الخير الموضوعيّة، ولكننا لن نستطيع من أجل ذلك أن نُصَورها كما لو كانت مُلزمة بالإقدام على أفعال مطابقة للقانون، لأنها تحتاج إلى تصور للخير قبل أن تتجه صوبه، وبهذا المعنى فإن الأوامر الأخلاقيّة تَصدر للإرادة الطيبة بصيغ كليّة ملزمة دون التقيد بشروط معينة مثل قولك:اعمل فقط بحسب تلك القاعدة التي من خلالها يمكنك أن تريد في الوقت نفسه أن تصير قانوناً كلياً، ولهذه الصيغة الكليّة عدة تعابير تتغير بحسب العلوم التي تريد التعبير عنها، والصيغة المطلقة هي صيغة شكليّة تُحدد الفعل الضروري بمقتضى الإرادة الطيبة ، وتبين الصيغ الشرطيّة للأمر الأخلاقي فتكون على النحو التالي: إن الفعل يكون خيراً بالقياس إلى مقصدٍ ممكن.

ويرى كانت أن الفعل الإنساني حتى يكون فعلاً أخلاقياً يجب أن يكون صالحاً لكل البشر، بمعنى افعل الفعل بحيث تعامل الإنسانيّة في شخصك، وفي شخص كل انسان سواك، باعتبارها دائماً وفي الوقت نفسه غايّة في ذاتها، ولا تعاملها أبداً كما لو كانت مجرد وسيلة، ولكن كيف يمكن أن يكون الفعل الأخلاقي ممكناً؟

لا بد من القول أن موضوعات العقل العملي الأخلاقي موضوعيّة بالنسبة للذات المتذوقة لها، وبالتالي كلما استطاع فردٌ ما أن تكون موضوع رغبات ارادته موضوعات صالحة لتشريع شامل كلما كانت هذه الموضوعات أكثر أخلاقيّة، وبالتالي فإنَّ هذه العلاقة بين قانون كلي وبين إرادة طيبة التي صوّرتها الأمثلة التي ساقها كانت في كتبه (كانت،2002،77– 78)، إن هذه العلاقة هي مجرد أمنيات تناسب بعض الشرفاء الذين تتعالى أخلاقهم عن الإضرار بالبشر، وينزعون إلى خير البشريّة، وبالتالي فإن التصور الأخلاقي الذي صاغه كانت يناسب الأنبياء والمرسلين وبعض المصلحين الذين يتعالون عن رغباتهم الشخصيّة لتناسب مجموع الأمة، ويسعَدون ويسعَون لخير الأمة، حتى لو تعارضت مصالحهم الفرديّة مع مصالحها، لأنها أخلاق تدعو إلى معاملة الفرد لذاته على أنه مشرّع لكل البشر، وأنه يجب أن ينتظر من تصرفه الفردي أن يناسب مجموع البشريّة، ولعل ذاك التعايش هو ما طلبه شوبنهاور عندما قال إنَّ السعادة لا تكون إلا من نصيب"" الذين أوتوا منا القدرات العقلية ما يفوق حاجة إرادتهم منها، فيعيشون بفضل ذلك حياة عقلية تملأ عليهم أوقاتهم وتسليهم، كما تفيض نشاطاً وحيوية وتخلو من كل أثر للألم والملل يعيشون هذه الحياة العقلية جنباً إلى جنب مع حياتهم العملية التي يشتركون فيها مع غيرهم"" (شوبنهاور،2018،59).

الخاتمة:

لقد تبين لنا من خلال عرضنا لنظريّة كانت الأخلاقيّة في الإرادة الطيبة عدة ملاحظات، ولعل أهمها:

1. إن نزعته الصوريّة التي خلعت على الإرادة الطيبة عدم التعاطف والابتعاد عن الفردانيّة، والذاتيّة، وابتعدت بها عن كل تجربة ممكنة، رمتها من جهة أخرى بهالة من القدسيّة أبعدتها عن صيغتها البشريّة، وجعلتها نظاماً مفارقاً يرمي لخدمة البشريّة جمعاء، دون النظر إلى مصلحة الفرد الذاتيّة، وهنا يحق لنا التردد في قبول هذه النظريّة التي أرادت أن تطهّر الإنسان من عالم الرذيلة، فجرّدته من إنسانيته المليئة بالمشاعر والأحاسيس والمصالح، ذلك أن الأخلاق كما أفهمها أنا يجب أن تنطلق من تحقيق مصالحي أنا طالما أن هذه المصالح لا تتعارض مع مصالح الجماعة، وأن إرادتي تبقى طيبة إذا ما لبَّتْ هذه المصالح، وكأن كانت أراد أن يصوغ نظريّة في الإرادة الإنسانيّة، ولكن لملائكة يطيقون تطبيقها وتحمّلها، فالبشر عاجزون أصلاً عن التزحزح عن هوياتهم المليئة بالأنانيّة، والمصلحة.
2. إن تصورات العقل الاستدلالية المجردة تُستمد في مجملها من الإدراك العياني، وهنا تكون التصورات قد انفصلت عن أصلها الحسي. وأصبحت معرفة مجردة. عندما تصبح المعرفة مجردة قد ينتاب العقل النظري بعض الشكوك أو ينتابه اليقين، وهذا

عمل العقل النظري الذي ينتج التصورات، أما العقل العملي فقد ينتابه الهم والندم أو السعادة لسلوك نتج عن تصور مجرد، في هذا المستوى من العقل النظري والعملي تنتج النظريات العلمية في العلوم النظرية والأحكام الأخلاقية في علم الأخلاقية، نتيجة العقل وبمساعدة ملكة أخرى. هذه الملكة تتيح للإنسان أن يختار من دوافعه الماثلة في الوعي، وهو يختار دائماً الدافع الذي تعتمده الإرادة باعتباره الدافع الأقوى، وهنا ينتج الفعل الأخلاقي.

3. يمكننا توجيه نقد للتصور الكانتي للإرادة الطيبة عندما اعتبر أن أصل الإنسان طيبٌ وأفسده الاختلاط، فكيف يكون طيباً وقد نضح منه كل شرٍ في التقائه بأخيه الطيب، وكيف تولّد الشر أصلاً لهذه الإرادة الطيبة، مما يعني أن نظرة كانت وتصوره عن أصل هذه الطبيعة كان خيالياً متعالياً وليس واقعياً.
4. لقد أثّر كانت على فلاسفة عديدين، وقد اهتم البحث بتأثيره على شوبنهاور الذي انطلق من مفردات كانت وتصوراته الأساسية حول العقل العملي والعقل النظري، ومقولات الزمان والمكان التي تعين اللحظة الفيزيائية في العقل النظري عبر التجربة، بينما مفاهيم العقل العملي تنطلق من مبادئ متعالية خارج إطار التجربة، لكن هذه المفاهيم المتعالية اختلفت في ماهيتها عند الرجلين؛ فبينما تكون الإرادة الطيبة عند كانت تخصُّ الإنسان الفرد، نجدها عند شوبنهاور إرادة متعالية تتحكم بالبشرية نحو قدر شرير يتلاعب بالإنسان.
5. يمكن للفعل الأخلاقي أن يكون ممكناً إذا ما انبرى العقل العملي في مساعدة الإرادة الطيبة على أداء دورها الأخلاقي من خلال مبادئه العمليّة القائمة على فكرة الحريّة والواجب، والاستعمال العملي للعقل من خلال نظره بالمبادئ التي تستعين بها الإرادة في إنتاج موضوعات خاصة بها وذلك ابتغاء السعادة نتيجة الشعور باللذة أو الألم، أما إذا جعلنا القانون الأخلاقي خاضعاً لرغبات كل فرد منا، رغباتٍ تلبي مصالحه دون غيره، فإننا لن نصل لقانون أخلاقي واحد لأن مصالح الناس متعارضة.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل:(501100020595).

المصادر والمراجع:

1. بدوي، عبد الرحمن.(د.ت). آرتور شوبنهور، وكالة المطبوعات. الكويت، دار القلم. بيروت.
2. بوترو،إميل.(1971). فلسفة كانط، ترجمة عثمان أمين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
3. حمد، اسعاف.(2014).المثقف العربي: إشكالية الدور الفاعل، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 30، العدد3-4،ص:339-366.
4. دولوز، جيل.(1997). فلسفة كانط النقدية، تعريب أسامة الحاج، طبعة أولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
5. رولز، جون.(شتاء2017). محاضرات في تاريخ فلسفة الأخلاق، ترجمة ربيع وهبة، مجلة تبيين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،23.
6. سليمان، جمال محمد أحمد.(2009). أنطلوجيا الوجود إيمانويل كانط، طبعة أولى، دار التنوير.
7. شوبنهاور، آرثر.(2018). فن العيش الحكيم، ترجمة عبد الله زارو، طبعة أولى، دار الأمان.
8. شوبنهاور، أرتور.(2006). العالم إرادة وتمثلاً، المجلد الأول، طبعة أولى، ترجمة سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة.
9. كانت، أمانويل.(2002). تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق. ترجمة وتقديم عبد الغفور مكاوي، مراجعة عبد الرحمن بدوي، كولونيا-ألمانيا، منشورات الجمل.
10. كانط، ايمانويل.(2012). الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة فتحي المسكيني، طبعة أولى، جداول للنشر والتوزيع.
11. كَنْت، أمانويل.(2008). نقد العقل العملي. ترجمة غانم هنا، طبعة أولى، المنظمة العربيّة للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربيّة.
12. محمد، منيرة.(2014).جدل الحرية ولتاريخ عند هيغل، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 30،العدد 1-2، ص: 507- 545.
13. كَنْت، أمانويل.(2005). نقد ملكة الحكم، ترجمة غانم هنا، طبعة أولى، المنظمة العربيّة للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربيّة.
14. هيوستن، نانسي.(2012). أساتذة اليأس، ترجمة وليد السويركي، طبعة أولى، هيئة أبو ظبي(كلمة).
15. وود. ألن و.(2014). كانط، ترجمة بدوي عبد الفتاح، طبعة أولى المركز القومي للترجمة، طبع بدار آفاق للنشر والتوزيع.